

لغات العرب وأثرها في تفسير القرآن الكريم

لغة: (يتعاقبون فيكم ملائكة) (نموذجاً)

أ. د. أحمد بن سليمان بن صالح الخضير

أستاذ القرآن وعلومه وكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

بجامعة القصيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله عز وجل أنزل كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2].

قال الشافعي بعد سياق هذه الآية ونظائرها: "فأقام حجته بأنه كتاب عربي"⁽¹⁾.

وقد اشتمل القرآن الكريم على لغات ولهجات العرب حين تنزل على محمد

ﷺ.

ولهذا يظهر عمق الدرس اللغوي والنحوي الذي يربط بين القرآن واللغة، ولهذا زامن التأليف في اللغة التأليف في التفسير وعلوم القرآن، فبينهما تمازج في التأليف والكتابة مع استقلالية كل علم على حدة.

ولقد عُني سلف الأمة من لدن الصحابة الكرام حتى يومنا هذا باللغة العربية ولهجاتها.

وكان فيما رأيت وقرأت في كتاب دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد بن عبد الخالق عضيمة "لغة أكلوني البراغيث"، وقد استدلت لها آيات من القرآن الكريم"⁽²⁾.

فأحببت الوقوف على هذه اللغة، وبحتها بحثاً يجلي ما اشتملت عليه من إشكال، فجمعت ما ذكره الأستاذ عبد الخالق عضيمة وزدت على ذلك وضمنته هذا

(¹) انظر: الرسالة (ص 47).

(²) انظر: (432/8).

البحث الموسوم: "لغات العرب وأثرها في تفسير القرآن الكريم - لغة (يتعاقبون فيكم ملائكة) أنموذجاً -".

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

1 - تظهر أهمية الموضوع من خلال ارتباطه بالقرآن الكريم، وما اشتمل عليه من لغات.

2 - أن الجهل بلغة العرب، وما سطره من قواعد وأدب سبب الخطأ في التفسير، قال ابن عاشور: "إن القرآن كلام عربي، فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم، لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتَّبَع من أساليبيهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم..."⁽¹⁾.

3 - كذلك ما بين التفسير واللغة من الترابط، فمن فسر القرآن وهو مفلس في معرفة قواعد اللغة العربية فقد أخطأ، ولذا قال الحسن: "أهلكتهم العجمة؛ يتأولونه - أي القرآن - على غير تأويله"⁽²⁾.

4 - أن هذه اللغة دارجة في لساننا؛ واستعمالنا لها كثير، ومن ذلك قولنا: "ناموا الأوباد، وراحوا الأهل،..." وهكذا.

5 - أن هذا الموضوع لم يدرس - حسب بحثي في محركات البحث المتوفرة لدي - دراسة تفسيرية، جل ما هنالك هو دراسات نحوية □ تمت إلى التفسير بصلة.

أهداف البحث:

1 - التعريف بلغة "يتعاقبون فيكم ملائكة".

⁽¹⁾ انظر: التحرير والتنوير (12/1).

⁽²⁾ رواه عنه البخاري في التاريخ الكبير (93/5) رقم (259).

- 2 - تحديد الآيات التي قيل إنها على لغة "يتعاقبون فيكم ملائكة".
 3 - عرض الخلاف الوارد حول الآيات التي قيل إنها على لغة "يتعاقبون فيكم ملائكة".

- 4 - الخروج برأي راجح في المسألة وبيان الأثر التفسيري من وراء ذلك.
خطة البحث:

- يشتمل الموضوع على مقدمة وتمهيد وسبعة مباحث، وخاتمة وفهارس.
- المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث.
- التمهيد: وفيه التعريف بلغة (يتعاقبون فيكم ملائكة)، ومفهومها.
- المبحث الأول: آية "113" من سورة آل عمران.
- المبحث الثاني: آية "71" من سورة المائدة.
- المبحث الثالث: آية "23" من سورة الإسراء.
- المبحث الرابع: آية "87" من سورة مريم.
- المبحث الخامس: آية "3" من سورة الأنبياء.
- المبحث السادس: آية "1" من سورة المؤمنون.
- المبحث السابع: آية "7" من سورة القمر.
- الخاتمة: وفيها أهم النتائج.
- الفهارس.

منهج البحث:

سلكت في بحثي المنهج الاستقرائي التحليلي والتزمت في بحثي إجراءات البحث العلمي المعروفة، والمشهورة عند أهل الفن، من توثيق للنصوص، وتعليق ما يحتاج إلى تعليق.

وقد سرت في عرض المسائل بالتالي:

- 1 - جمعت الآيات التي قيل إنها على لغة "يتعاقبون فيكم ملائكة".
 2 - فرزت الآيات ووزعتها على مباحث مرتبة حسب ترتيب المصحف.

3 - ذكر الأقوال الواردة في الآية سواء من يثبت أنها على لغة "يتعاقبون فيكم ملائكة" أو من ينفي.

4 - أختتم المسألة بالترجيح وسبب الترجيح والأثر التفسيري من وراء ذلك. وفي الختام: أسأل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله سبحانه من العلم الذي يتغى فيه رضاه سبحانه، فينتفع به، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

وفيه التعريف بلغة "يتعاقبون فيكم ملائكة، ومفهوماً".

هذه اللغة إحدى اللغات العربية المنسوبة إلى طي⁽¹⁾ وأزدشنوءة⁽²⁾، وبلحارث بن كعب⁽³⁾، وهي لهجة فصيحة صحيحة، وإن كانت قليلة استعمال، ولها من الشواهد القرآنية والحديث النبوي وأشعار العرب ما يسندها. وتسمى هذه اللغة بلغة: "أكلوني البراغيث"، ومن سماها بهذا اسم سيبويه في كتابه⁽⁴⁾.

(1) طي: بن آدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان، والنسبة إليهم طائي، كانت منازلهم في اليمن، ثم خرجوا منها ونزلوا في سميراء، وفيدام. انظر: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، للقلقشندي (ص72)، عمالة المتدي وفضالة المنتهي في النسب للمهمداني (ص6).

(2) أزدشنوءة: وهو عبدالله، ويقال الحارث بن كعب بن عبدالله بن كعب بن مالك بن نصر بن الأزد، منازلهم بالسراة. انظر: الأنساب للسمعاني (ص18)، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، للقلقشندي (ص91).

(3) بلحارث بن كعب: فخذ من القحطانية، وهم بنو بلحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بم مذحج. انظر: قبائل العرب القديمة والحديثة، للدمشقي (102/1).

(4) انظر: الكتاب (19/1).

قال أبو عبيدة: "العرب تجوز في كلامهم مثل هذا أن يقولوا: أكلوني البراغيث، قال أبو عبيدة سمعتها من أبي عمرو الهذلي في منطقته، وكان وجه الكلام أن يقول: أكلني البراغيث"⁽¹⁾.

ومن العرب من سماها لغة: "يتعاقبون فيكم ملائكة"، قال ابن مالك: "ويجوز على لغة: يتعاقبون فيكم ملائكة"⁽²⁾.

ومن العرب من يسميها "ضربوني قومك، وضرباني أخواك"⁽³⁾.

أما تسميتها بلغة "أكلوني البراغيث" فهو إشارة إلى الرجل الذي تعب من البراغيث حيث جعلت تصعد على جسمه وتقرصه وتؤذيه، فجعل يقول: أكلوني البراغيث، فسميت بهذا لطرافة المثل"⁽⁴⁾.

والبراغيث: جمع برغوث، وهو حشرة صغيرة، لونه أسود أحذب، عضوض، شديد الوثب، يمتص دم الإنسان والحيوان، وينقل إليه الأمراض"⁽⁵⁾.

وأما تسميتها بلغة "يتعاقبون فيكم ملائكة"، فهو نسبة للحديث الشريف - وسيأتي تخريجه -.

ومفهوم هذه اللغة: يتمثل بإلحاق علامة التثنية أو الجمع بالفعل، والفاعل اسم ظاهر مثنى أو مجموع نحو: فازا المؤمنان، وفازوا المؤمنون، وفزنا المؤمنات.

وقاعدته كما قال ابن مالك:

وَجَرِدِ الْفُعْلُ إِذَا مَا أُسْنِدَا ثُنَيْنِ أَوْ جَمْعِ كَفَّازِ الشُّهْدَا

⁽¹⁾ انظر: مجاز القرآن (102/1).

⁽²⁾ انظر: همع الهوامع (579/1).

⁽³⁾ انظر: ارتشاف الضرب (180/1).

⁽⁴⁾ انظر: شرح العثيمين على ألفية ابن مالك (201/2).

⁽⁵⁾ انظر: حياة الحيوان للدميري (206/5)، معجم اللغة العربية المعاصرة (191/1).

وقد يُقال سَعِدَا وَسَعِدُوا والفعل للظاهر بعد مسند

فإن العرب - على الجملة - تلحق الفعل علامة تدل على حال الفاعل من كونه مؤنثاً غير مذكر، أو كونه مثنى أو مجموعاً، أو ما شابه ذلك، وابتدأ بالكلام على لحاق العلامة إذا كان الفاعل ظاهراً مثنى أو مجموعاً وسواء أكان مذكراً أم مؤنثاً فيريد أن الفعل إذا أسند إلى اثنين أو إلى جمع - وهما المثنى والمجموع - فهو مجرد عن العلامة الدالة على التثنية والجمع، فلا تلحقه في اللغة الأكثر علامة، فتقول قام الزيدان، وقام الزيدون، و□ تقول: قاما الزيدان، و□ قاموا الزيدون، ومنه قوله سبحانه: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ [المائدة: 23]، وأتى من ذلك بمثال، وهو قوله: "فاز الشهداء"، ولم يقل: "فازوا الشهداء"، ومثله قولك: لو قلت: فاز الشهيدان، ومثل ذلك إذا قلت: قامت الهندان، وقامت الهندات، فلا تقول في اللغة المشهور: قامت الهندان، و□ قمن الهندات، بل تجرد الفعل من العلامتين: علامة التثنية وعلامة الجمع.

وإنما جرد الفعل هنا قصداً للترقية بين قام أخواك، وأخواك قاما؛ لأن العلامة لو لحقت في قاما أخواك، □ لتبست بالضمير، فتوهم أن قاما خبر مقدم، ففصلوا، وهذا هو الفرق بين التثنية والجمع وبين التأنيث حيث ألحقوا علامة التأنيث دون علامتي التثنية والجمع؛ لأن علامة التأنيث ليست بعلامة إضمار، ثم قال الناظم: وقد يقال: سَعِدَا وَسَعِدُوا، إلى آخره، يعني أن من العرب من يقول: قام أخواك، وقاموا إخوتك، وقامت الهندان، وقمن الهندات، "فيلحق الفعل علامة التثنية والجمع، وكذلك

تقول على تمثيله: سعد أخواك، وسعدوا إخوتك، وسعدتا أختاك، وسعدن أخوانك⁽¹⁾.

وهذه اللهجة تعد مرحلة من مراحل التطور اللغوي في حياة العربية، بل وذهب بعضهم إلى أن هذه القاعدة هي الأصل والأسبق من القاعدة العامة المعروفة الآن، وهي أفراد الفعل عندما يتقدم الفاعل الجمع، فالمعقول أن يجمع الفعل مع الجمع، ويفرد مع المفرد⁽²⁾.

المبحث الأول

قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ أُتِلَ وَهُمْ يَسْتَجِدُونَ﴾ [سورة آل عمران: 113].

قوله: "ليسوا" اختلف في حرف "الواو" على قولين:

القول الأول: أن الواو في "ليسوا" علامة جمع، وليست ضميراً، واسم "ليس" - على هذا - "أمة" و"قائمة" صفتها، وكذا "يتلون".

قال أبو عبيدة: "العرب تجوز في كلامهم مثل هذا أن يقولوا: أكلوني البراغيث، قال أبو عبيدة: سمعتها من أبي عمرو الهذلي في منطقته، وكان وجه الكلام أن يقول: أكلني البراغيث، وفي القرآن: ﴿عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [سورة المائدة: 71]، وقد يجوز أن يجعله كلامين، فكأنك قلت: "ليسوا سواء من أهل الكتاب"، ثم قلت: "أمة قائمة"⁽³⁾.

(1) انظر: المقاصد الشافية (555/2-556).

(2) انظر: اللهجات العربية في القراءات القرآنية؛ د. عبده الراجحي (ص 187)، اللغة والنحو، د. حسن عون (ص 61).

(3) انظر: مجاز القرآن (102/1)، ذكرت كتب التفسير والمعاني، ككتاب معاني القرآن وإعراجه للزجاج (458/1)، والبحر المحيط، لأبي حيان (50/3)، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الخنيلي

فأبو عبيدة يرى أن قوله: "ليسوا سواء" كلام غير تام، و[] يجوز الوقوف عنده، بل هو متعلق بما بعده، التقدير: ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة، وأمة مذمومة، "أمة" رفع بليس، وإنما قيل: "ليسوا" على مذهب من يقول: أكلوني البراغيث، وعلى هذا التقدير [] بد من إضمار الأمة المذمومة⁽¹⁾.

القول الثاني: قالوا: إن قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ كلام تام، وقوله "من أهل الكتاب أمة قائمة" كلام مستأنف لبيان قوله: "ليسوا سواء"، كما وقع قوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: 110]، بيانياً لقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: 110]، والمعنى: أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم ليسوا سواء، وهو تقرير لما تقدم من قوله: "منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون"، ثم ابتداء فقال: "من أهل الكتاب أمة قائمة"، وعلى هذا القول احتمالان:

الاحتمال الأول: أنه لما قال: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ﴾، كان تمام الكلام أن يقال: "ومنهم أمة مذمومة"، [] أنه أضمر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين يعني عن ذكر الضد الآخر، وتحقيقه أن الضدين يعلمان معاً، فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما؛ فلا جرم يحسن إهمال الضد الآخر، ومنه قول القائل:

(476/5)، نصاً لأبي عبيدة غير موجود في المطبوع، وهو: "قال أبو عبيدة: الواو في "ليسوا" علامة جمع، وليست ضميراً، واسم "ليس" على هذا "أمة"، و"قائمة" صفتها، وكذا "يتلون"، وهذا على لغة "أكلوني البراغيث"، بيد أن هذا النص غير موجود في المطبوع كما ذكرت آنفاً، وما ذكر أعلاه هو الموجود في كتابه مجاز القرآن؛ فليراجع".

(1) انظر: التفسير الكبير (331/3).

دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهَا سَمِيعٌ فَمَا أَدْرِي أُرْشِدُ طِلَابُهَا؟⁽¹⁾

والتقدير: أم غي، فحذف العي؛ للدلالة ضده عليه.

ومثله قول الآخر:

أَرَاكَ فَمَا أَدْرِي أَهْمٌ هَمَّتُهُ وَذُو الهَمِّ قَدَمًا خَاشِعٌ مُتَضَائِلٌ⁽²⁾

أي: أهْمٌ هَمَّتُهُ أم غيره؟ محذوف؛ للدلالة، وهو كثير.

قال الفراء: "إن الوقف [] يتم على "سواء" فجعل الواو اسم "ليس" و"سواء" خيرها و"أمة" مرتفعة ب"سواء" ارتفاع الفاعل، أي: ليس أهل الكتاب مستويًا، من أهل الكتاب منهم أمة قائمة، موصوفة بما ذكر، وأمة كافرة، فحذفت هذه الجملة المعادلة؛ للدلالة القسم الأول عليها؛ فإن مذهب العرب إذا ذكر أحد الضدين أغنى عن ذكر الآخر، قال الشاعر:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتِ وَجْهًا أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أَخَيْرَ الَّذِي أَنَا أَبْتغِيهِ أَمِ الشَّرِّ الَّذِي [] يَأْتِلِينِي⁽³⁾

⁽¹⁾ القائل: أبو ذؤيب الهذلي، انظر: ديوان الهذليين (71/1).

⁽²⁾ لم أقف على قائل هذا، وهو موجود في معاني القرآن للفراء (163/1).

⁽³⁾ القائل: هو المثقب العبدى، انظر: ديوانه (ص212).

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ [الزمر: ٩]، ولم يذكر الذي هو ضده؛ لأن قوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] دليل على ما أضمر من ذلك⁽¹⁾.

وقال ابن الأنباري: "والتقدير ليس أمة قائمة وأمة غير قائمة سواء، فحذف غير قائمة، كقوله: ﴿ سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ أَحَرَ ﴾ [النحل: ٨١]، ولم يقل البرد، وهذا كثير في كلامهم"⁽²⁾.

الاحتمال الآخر: وهو نقيض الاحتمال الأول، وقالوا: □ حاجة إلى القول بالحذف، ووضع الظاهر موضع المضمّر، إذ الأصل: منهم أمة قائمة، فوضع أهل الكتاب موضع المضمّر.

قال الطبري: "ف"سواء" في هذا الموضع بمعنى التمام والكتفاء"⁽³⁾. وقال الزجاج: □ حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة؛ لأن ذكر الأمة المذمومة قد جرى فيما قبل هذه الآيات، فلا حاجة إلى إضمارها مرة أخرى؛ لأننا قد ذكرنا أنه لما كان العلم بالضدين معاً كان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر، وهذا كما يقال: زيد وعبدالله □ يستويان، زيد عاقل دين ذكي، فيغني هذا عن أن يقال: وعبدالله ليس كذلك، فكذا ههنا لما تقدم قوله: "ليسوا سواء"، أغنى ذلك عن الإضمار"⁽⁴⁾.

وهذا □ اختلاف بمثابة حجر الزاوية، والذي يعبر عن مدى □ اختلاف العميق بين المدرستين النحويتين الكوفية والمتمثلة في قول الفراء، والبصرية والمتمثلة في قول أبي عبيدة، ولكل منهما ناصر ومؤيد، وكذا متابع ومعقب.

⁽¹⁾ انظر: معاني القرآن (163/1).

⁽²⁾ انظر: البيان في إعراب غريب القرآن (ص190).

⁽³⁾ انظر: تفسيره (691/5).

⁽⁴⁾ ذكره عنه الرازي في تفسيره (331/3)، ولم أجده في كتاب الزجاج، معاني القرآن وإعرابه.

وقد تعقب قول الفراء كل من الطبري والنحاس وابن عطية.

فقال الطبري: "وقد توهم جماعة من نحوي الكوفة والبصرة والمتقدمين منهم في صناعتهم، أن ما بعد "سواء" في هذا الموضع من قوله: "أمة قائمة" ترجمة عن "سواء"، وتفسير عنه، بمعنى □ يستوي من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل، وأخرى كافرة، وزعموا أن ذكر الفرقة الأخرى تُرك اكتفاء بذكر إحدى الفرقتين، وهي الأمة القائمة وهو مع ذلك خطأ عندهم قول القائل المرید أن يقول: (سواء أقممت أم قعدت) و(سواء أقممت)، حتى يقول: أم قعدت، وإنما يجيزون حذف الثاني فيما كان من الكلام مكتفياً بواحد، دون ما كان ناقصاً عن ذلك، وذلك نحو: ما أبالي، أو ما أدري، فأجازوا في ذلك: ما أبالي أقممت، وهم يريدون: ما أبالي أقممت أم قعدت، □ كتفاء: ما أبالي بواحد، وكذلك في: ما أدري، وأبو الإجازة في "سواء"، من أجل نقصانه، وأنه غير مكتفٍ بواحد، فأغفلوا في توجيههم قوله: "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة"، على ما حكينا عنهم إلى ما وجَّهوا إليه مذاهبهم في العربية، إذ أجازوا فيه من الحذف ما هو غير جائز عندهم في الكلام مع "سواء" وأخطأوا في تأويل الآية⁽¹⁾.

وقال النحاس - أيضاً - كلاماً يشبه كلام الطبري فيما ذهب إليه، وأضاف كلاماً آخر، فقال: "□ أن للفراء فيه قولٌ زعم أنه يرفع أمة بسواء، وتقديره: ليس تستوي أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله، وأمة كافرة، وهذا القول خطأ من جهات:

(1) انظر: تفسيره (690/5).

إحداها: أنه يرفع أمة بسواء، فلا يعود على اسم ليس شيء يرفع، بما ليس جارياً على الفعل، ويُضْمَرُ ما □ يحتاج إليه؛ لأن تقدم ذكر الكافرين فليس لإضمار هذا وجه" (1).

وكذلك قال ابن عطية في تفسيره: "وما قال أيضاً الفراء خطأ مردود" (2).

هذا بالنسبة للمدرسة الكوفية، وما جاء عليها من تعقيب، كذلك المدرسة البصرية والتمثلة في قول أبي عبيدة، فقد تُعقب عليها من بعض الأئمة الذين لهم رؤيتهم اللغوية العميقة كالزجاج، والنحاس (3)، ومكي وابن عطية (4)، فخطأوا كلامه وردوه، فقال الزجاج: "وهذا ليس كما قال - يقصد أبا عبيدة - لأن ذكر أهل الكتاب قد جرى، فأخبر الله أنهم غير متساوين، فقال: "ليسوا سواء"، ثم أنبأ بافتراقهم فقال: من أهل الكتاب أمة قائمة" (5).

وقال مكي: "وهذا بعيد - يقصد كلام أبي عبيدة - لأن المذكورين قد تقدموا قبل ليس، ولم يتقدم في أكلوني شيء، فليس هذا مثله" (6).

وقد انتصر أبو حيان لقول أبي عبيدة، وقال معقباً على من غلط كلامه وردوه: "وكأنه توهم أن اسم ليس هو أمة قائمة فقط، وأنه □ محذوف ثم، إذ ليس الغرض تفاوت الأمة القائمة التالية، فإذا قدر ثم محذوف لم يكن قول أبي عبيدة خطأ مردود" (7).

(1) انظر: إعراب القرآن (ص216).

(2) انظر: تفسيره (273/3).

(3) انظر: إعراب القرآن (ص216).

(4) انظر: تفسيره (273/3).

(5) انظر: معاني القرآن وإعرابه (458/1).

(6) انظر: مشكل إعراب القرآن (208/1).

(7) انظر: تفسيره (49/3).

الترجيح :

الراجح - والله تعالى أعلم - أن يقال: إن قوله تعالى: "ليسوا سواء" جملة تامة، وقوله: "من أهل الكتاب" جملة برأسها، وقوله: "يتلون" جملة أخرى مبينة لعدم استوائهم، كما جاءت الجملة من قوله: "تأمرون بالمعروف"، مبينة للخيرية، فالواو ضمير عائد على أهل الكتاب، وسواء خبر ليس، والمعنى: ليس أهل الكتاب مستويين، بل منهم من آمن بكتابه، وبالقرآن ممن أدرك شريعة الإسلام، أو كان على استقامة فمات قبل أن يدركها، و"من أهل الكتاب أمة قائمة"، مبتدأ وخبر⁽¹⁾.

قال أبو حيان: "والأصح أن الواو ضمير عائد على أهل الكتاب، وسواء خبر ليس"⁽²⁾.

المبحث الثاني

قال تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: 71].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ في هذا التركيب خمسة أوجه:

الوجه الأول: أن الواو علامة جمع الفاعل كما يلحق الفعل تاء التأنيث ليدل على تأنيث الفاعل، كـ "قامت هند"، وهذه اللغة جارية في المثني، وجمع الإناث - أيضاً - ، فيقال: قاما أخواك، وقمن أخواتك، وهو كقول القائل⁽³⁾:

(1) انظر: تفسير الطبري (691/5)، أبي حيان (49/3)، السمين الحلبي (356/3)، ابن عادل الحنبلي (476/5).

(2) انظر: البحر المحيط (49/3).

(3) البيت لعبدالله بن قيس الرقيات، انظر: ديوانه (ص196).

تولى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مُبَعَّدٌ وَحَمِيمٌ

وقول الآخر⁽¹⁾:

ولكن دِيَائِيُ أبوه وأمه بَحْوَرَانِ يَعْصِرْنَ السَّلِيْطَ أَقَارِيهُ

واستدل بعضهم بقوله ﷺ: "يتعاقبون فيكم ملائكة... الحديث"⁽²⁾، ويعبر النحاة عن هذه اللغة بلغة "أكلوني البراغيث". قال أبو حيان - متعباً هذا الوجه من الإعراب -: "و" ينبغي ذلك لقلّة هذه اللغة"⁽³⁾.

وقال ابن عادل الحنبلي: "ولكن الأفصح أنّ تلحق الفعل علامة، وفرّق النحويون بين لحاقه علامة التأنيث، وعلامة التثنية والجمع، بأن علامة التأنيث ألزم؛ لأن التأنيث في ذات الفاعل بخلاف التثنية والجمع فإنه غير لازم"⁽⁴⁾.
الوجه الثاني: أن الواو ضمير عائد على المذكورين العائد عليهم واو "حسبوا"، و"كثير" بدل من هذا الضمير، كقولك: "أخوتك قاموا كبيرهم وصغيرهم"، ونحوه.

⁽¹⁾ البيت للفرزدق، انظر: ديوانه (ص50).

⁽²⁾ الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، حديث (555) (ص93)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما حديث (632) (ص255).

⁽³⁾ انظر: البحر المحيط (730/3).

⁽⁴⁾ انظر: اللباب في علوم الكتاب (456/7).

والأبدال كثيرة في القرآن، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

الوجه الثالث: أن الواو ضمير أيضاً، و"كثير" بدل منه، قصد منه تخصيص أهل الفضل والصلاح منهم في كل عصر بأنهم براء مما كان عليه دهماؤهم صدعاً بالحق وثناءً على الفضل، وإذ قد كان مرجع الضميرين الأخيرين في قوله: "ثم عموا وصموا" هو عين مرجع الضميرين الأولين في قوله: "فعموا وصموا" كان الإبدال من الضميرين الأخيرين المفيد تخصيصاً من عمومهما مفيداً تخصيصاً من عموم الضميرين اللذين قبلهما بحكم المساواة بين الضمائر⁽¹⁾.

قال الفخر الرازي: "وهذا الإبدال ههنا في غاية الحسن؛ لأنه لو قال: "عموا وصموا" لأوهم ذلك أن كلهم صاروا كذلك، فلما قال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لِلْأَكْثَرِ الْكُلِّ"⁽²⁾.

وقد عَدَّ الشنقيطي هذا الوجه من الإعراب في هذه الآية وغيرها من الآيات المشابهة لها أنه أحسن وجوه الإعراب، فقال: "وقوله: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أحسن وجوه الإعراب أنه بدل من واو الفاعل في قوله: "عموا وصموا"، وكذلك جاء القوم أكثرهم"⁽³⁾.

(1) انظر: التحرير والتنوير (169/5).

(2) انظر: التفسير الكبير (58/12).

(3) انظر: أضواء البيان (117/2).

والفرق بين هذا الوجه والذي قبله: أن الضمير في الوجه الأول مفسر بما قبله وهم بنو إسرائيل، وأما في هذا الوجه فهو مفسر بما بعده، وهذا أحد المواضع التي يفسر فيها الضمير بما بعده، وهو أنه يبدل منه ما يفسره⁽¹⁾.

الوجه الرابع: أن الضمير عائد على من تقدم "وكثير" خبر مبتدأ محذوف، وفي تقديره وجهان:

الأول: تقديره: العُمى والصُّمُّ كثير منهم.

الثاني: تقديره: العَمَى والصَّمَمُ كثير منهم، ودل على ذلك قوله: "ثم عموا وصموا".

فعلى تقديره الأول: يكون "كثير صادقاً عليهم، و"منهم" صفة لـ"كثير"؛ وعلى التقدير الثاني: يكون "كثير" صادقاً على العَمَى والصَّمَمِ □ عليهم، و"منهم" صفة له، بمعنى أنه صادر منهم، وقدّره الزمخشري بقوله: "أولئك كثير منهم"⁽²⁾. وقال ابن عادل: "وهذا الثاني غير ظاهر"⁽³⁾.

الوجه الخامس: أن "كثيراً" مبتدأ، والجملة الفعلية قبله خبر، و□ يقال: إن الفعل متى وقع خبراً، وجب تأخيره؛ لأن ذلك مشروط بكون الفاعل مستتراً نحو "زيدٌ قام" لأنه لو قدم، فقيل: "قام زيدٌ" لألبس بالفاعل، فإنه قيل: وهذا أيضاً يُلبس بالفاعل في لغة "أكلوني البراغيث".

□ أن هذا الوجه من الإعراب ضعفه أبو البقاء العكبري بقوله: "وقيل هو مبتدأ والجملة قبله خبر عنه، أي كثير منهم عموا، وهو ضعيف؛ لأن الفعل قد وقع في موضعه فلا ينوي به غيره"⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ انظر: اللباب في علوم الكتاب (456/7)، الدر المصون (371/4).

⁽²⁾ انظر: الكشاف (696/1).

⁽³⁾ انظر: اللباب (456/7).

⁽⁴⁾ انظر: إملاء ما من به الرحمن (ص230).

قال الألوسي: "صرحوا بعدم جواز تقديم الخبر فيما يصلح المبتدأ أن يكون تأكيداً للفاعل نحو: أنا قمت، فإن (أنا) لو آخر [لتبس بتأكيد الفاعل، وما نحن فيه مثله] أن [لتباس فيه بتابع آخر، أعني البدل فتدبر]"⁽¹⁾.

بيد أن هذا الكلام فيه نظر؛ لأننا [نسلم أنه وقع موقعه، وإنما كان واقعاً موقعه لو كان مجرداً من علامة، ومثل هذه الآية - أيضاً - قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا﴾ [التجوى الَّذِينَ ظَلَمُوا] [الأنبياء: 3]⁽²⁾.

الترجيح:

بعد عرض المسألة وما اشتملت عليه من إعراب ومعنى أقول:

بالنظر إلى معنى الآية وسياقها يتبين أن المراد ليس الجميع، بل المراد كثير منهم، لكن الأكثر له حكم الكل؛ فلذلك أسند العمى والصم إليهم جميعاً، ثم بين حقيقة الواقع، وهو أن الذين عموا وصموا كثير منهم⁽³⁾، فالمعنى هنا يرجح عدم إعراب الآية على لغة "أكلوني البراغيث"، والقاعدة تقول: في تفسير القرآن بمقتضى اللغة يراعى المعنى الأغلب والأشهر والأفصح⁽⁴⁾، فالراجح إذاً الوجه الثالث بناءً على ذلك.

⁽¹⁾ انظر: روح المعاني (509/6).

⁽²⁾ انظر المسألة في كل من: البحر المحيط (730/3)، الجامع لأحكام القرآن (98/8)، الباب في علوم الكتاب (456/7).

⁽³⁾ انظر: شرح العثيمين على ألفية ابن مالك (204/2).

⁽⁴⁾ انظر: قواعد التفسير، د/خالد السبت (213/1).

المبحث الثالث

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [سورة الإسراء: 23].

في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ [الإسراء: ٢٣] مسألتان:

المسألة الأولى: القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾.
القراءة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ بغير ألف بعد الغين، ونصب نون التوكيد المشددة.
وحجة ذلك: لما رأى الفعل متقدماً ﴿أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ على الأصول في تقدم الفعل، واستغنى بلفظ التثنية عن تثنية لفظ الفعل.
القراءة الثانية: قرأ حمزة والكسائي وخلف والمطوعي والأعمش والسلمي وابن وثاب والجحدري وطلحة: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ) بألف ممدودة بعد الغين ونون التوكيد المشددة المكسورة⁽¹⁾.

القراءة الثالثة: روي عن ابن ذكوان أنه قرأ (إِمَّا يَبْلُغَنَّ) بالنون الخفيفة.

القراءة الرابعة: قرئ (إِمَّا يَبْلُغَنَّ) .. بالألف بعد الغين، ونون خفيفة مكسورة.

القراءة الخامسة: جاء في مصحف عبدالله بن مسعود (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ) إما واحد وإما كلاهما⁽²⁾.

(1) انظر: السبعة [بن مجاهد (ص379)، معاني القراءات للأزهري (2/92)، الحجة في علل القراءات لأبي علي الفارسي (3/397)، الكشف لمكي بن أبي طالب (2/44)، النشر [بن الجزري (2/306)، البدور الزاهرة (2/227)].

(2) انظر: المحرر الوجيز (9/52)، البحر المحيط (6/31)، غرائب القرآن (15/23)، زاد المسير (5/22)، فتح

والقراءتان الأولى والثانية قراءتان صحيحتان متواترتان، والباقي قراءات شاذة.

المسألة الثانية: إعراب قوله تعالى: (إما يبلغان) على قراءة من قرأ بالألف بعد الغين، ففي قوله (يبلغان) عدة أوجه:

الوجه الأول: أن الألف ضمير الوالدين لتقدم ذكرهما، و"أحدهما" بدل منه، و"كلاهما" عطف عليه.

وإليه نحا الزمخشري وابن عطية⁽¹⁾، والرازي⁽²⁾، والعكبري، وجوزه ابن الأنباري⁽³⁾.

قال الزمخشري: "وهو فيمن قرأ "يبلغان" بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين"⁽⁴⁾.

وقال العكبري: "ويقرأ "يبلغان" والألف فاعل"⁽⁵⁾.

وقد استشكله بعضهم⁽⁶⁾ بأن قوله "أحدهما" بدل بعض من كل، □ كل من كل؛ لأنه غير وافٍ بمعنى الأول، وقوله بعد ذلك: "أو كلاهما" عطف على البدل، فيكون بد□، وهو بدل الكل من الكل؛ لأنه مرادف لألف التثنية، لكنه □ يجوز أن يكون بد□؛ لعمومه عن الفائدة؛ إذ المستفاد من ألف التثنية هو المستفاد من "كلاهما"، فلم يفد البدل زيادة على المبدل منه.

القدير (218/3)، كتاب المصاحف (ص64)، معجم القراءات القرآنية (40/5).

⁽¹⁾ انظر: تفسيره (54/9).

⁽²⁾ انظر: تفسيره (324/7).

⁽³⁾ انظر: البيان (ص72).

⁽⁴⁾ انظر: تفسيره (615/2).

⁽⁵⁾ انظر: إملاء ما من به الرحمن (ص386).

⁽⁶⁾ وهو: أبو حيان، انظر: تفسيره (32/6).

قال السمين الحلبي مستدرکاً على هذا الإشكال: "وفيه نظر؛ إذ لقائل أن يقول: مُسَلَّمٌ أنه لم يفد البدل زيادة على المبدل منه، لكنه □ يضر لأنه شأن التوكيد، ولو أفاد زيادة أخرى غير مفهومة من الأول كان تأسيساً □ تأكيداً"⁽¹⁾.

وعلى القول بالتسليم بذلك فقد يجاب عنه بما أجاب به ابن عطية عندما قال: "وهو بدل مُقَسِّم، كقول الشاعر:
وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ صَحِيحَةٍ وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتِ⁽²⁾(3)

□ أن أبا حيان - وكالعادة في تعقبه على ابن عطية - قال: "وأما قول ابن عطية وهو بدل مقسم كقول الشاعر:
وكننت كذي رجلين البيت .

فليس من بدل التقسيم؛ لأنَّ شرط ذلك العطف بالواو، وأيضاً فالبديل المقسم □ يصدق المبدل فيه على أحد قسميه، و"كلاهما" يصدق عليه الضمير وهو المبدل منه، فليس من المقسم"⁽⁴⁾.

وعلى هذا فمتى سلم له شرطان: لزم ما قاله.

الوجه الثاني: أن الألف في "يلغان" ليست ضميراً، بل علامة تثنية، و"أحدهما" فاعل بالفعل قبله، و"أو كلاهما" عطف عليه، فهو على لغة أكلوني البراغيث.
وقد قال بهذا الفراء، ومكي بن أبي طالب⁽¹⁾، وجوزة النحاس وابن الأنباري⁽²⁾.

⁽¹⁾ انظر: الدر المصون (336/7) .

⁽²⁾ البيت لكثير عزة، انظر: ديوانه (ص99) .

⁽³⁾ انظر: تفسيره (54/9) .

⁽⁴⁾ انظر: تفسيره (32/6) .

قال الفراء: "وقوله: "إما يبلغان عندك الكبر" فإنه ثني؛ لأن الوالدين قد ذكرا قبله، فصار الفعل على عددهما، ثم قال: "أحدهما أو كلاهما" على استئناف، كقوله: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ الآية [المائدة: ٧١]"⁽³⁾.

وقال النحاس: "وتجوز الثانية كما تقول: جاءني أحدهما أو كلاهما على البدل، لأنك قد جئت بعد الفعل بثلاثة"⁽⁴⁾.

وقد رد هذا الوجه من الإعراب: بأن شرط الفاعل في الفعل الملحق به علامة تثنية: أن يكون مسنداً لمثنى؛ نحو: قاما أخواك، أو إلى مفرق بالعطف بالواو خاصة على خلاف فيه؛ نحو: "قاما زيد وعمرو".

قال أبو حيان: "فقل الألف علامة تثنية على لغة أكلوني البراغيث، وأحدهما فاعل، و"أو كلاهما" عطف عليه، وهذا [ي] يجوز...."⁽⁵⁾، وقال قبل ذلك ابن هشام: "من زعم أن الآية على هذه القراءة جارية على لغة "أكلوني البراغيث فهو غلط"⁽⁶⁾.

فالفعل هنا مسند إلى ﴿أَحَدُهُمَا﴾، وليس مثنى، و[] مفرقاً بالعطف بالواو.

الوجه الثالث: أن يعرب قوله: ﴿كِلَاهُمَا﴾ چتوكيد، وقد نقل عن أبي علي الفارسي ذلك⁽⁷⁾؛ [] أن هذا الوجه [] بد من إصلاحه بزيادة، وهو أن يجعل ﴿أَحَدُهُمَا﴾

⁽¹⁾ انظر: مشكل إعراب القرآن (412/1).

⁽²⁾ انظر: البيان في إعراب غريب القرآن (ص72).

⁽³⁾ انظر: معاني القرآن (454/1).

⁽⁴⁾ انظر: إعراب القرآن (ص491).

⁽⁵⁾ انظر: تفسيره (32/6).

⁽⁶⁾ انظر: مغني اللبيب (367/2).

⁽⁷⁾ انظر: الحجة في علل القراءات السبع (397/3)، وذكر ذلك أيضاً السمين الحلبي في الدر المصون

=

بدل بعض من كل، ويضم بعد فعل رافع لضمير تثنية، ويقع ﴿كِلَاهُمَا﴾ توكيداً لذلك الضمير تقديره: أو يبلغا كلاهما، إ[] أنه فيه حذف المؤكد، وإبقاء التوكيد، وفيها خلاف، أجازها الخليل وسيبويه⁽¹⁾؛ نحو: "مررت بزيد، ورأيت أخاك أنفسهما". ولكن في هذا نظر؛ من حيث إن المنقول عن أبي علي الفارسي منع حذف المؤكد وإبقاء توكيده، فكيف يُجرح قوله على أصل إ[] يجيزه؟. وقد نصّ الزمخشري على منع التوكيد، فقال: "فإن قلت: ما ضرك لو جعلته توكيداً مع كون المعطوف عليه بد[]، وعطف التوكيد على البدل؟ قلت: لو أريد توكيد التثنية لقل: كلاهما، فحسب؛ فلما قيل: ﴿أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ علم أن التوكيد غير مراد، فكان بد[] مثل الأول"⁽²⁾. الوجه الرابع: أن يرتفع وجهه بفتح مقدر تقديره: أو يبلغ كلاهما، ويكون "أحدهما" بد[] من ألف الضمير بدل بعض من كل، والمعنى: إما يبلغ عندك أحد الوالدين أو يبلغ كلاهما⁽³⁾.

. (237/7)

⁽¹⁾ انظر: الكتاب (247/1).

⁽²⁾ انظر: تفسيره (615/2).

⁽³⁾ انظر المسألة في: إعراب القرآن للنحاس (ص491)، الحجة في علل القراءات السبع (397/3)، مشكل إعراب القرآن (462/1)، المحرر الوجيز (53/9)، البحر المحيط (31/6)، الدر المصون (335/7)، اللباب في علوم الكتاب (253-251/12).

الترجيح:

بعد عرض الأوجه الإعرابية والمعاني التي اشتملت عليها الآية في قراءة حمزة والكسائي "يبلغان" بالألف، تبين ما يلي:

أن الأقوال الواردة في الآية الكريمة □ تسلم من الردود، وأن تطبيق لغة "يتعاقبون فيكم ملائكة" على الآية الكريمة □ يسلم بذلك؛ لأن شرط الفاعل الذي لحقته علامة التثنية أن يكون مسنداً لمثنى أو معرف بالعطف بالواو، وهذا ليس وارداً في الآية⁽¹⁾.

قال الألوسي: "ولعل المختار إضمار فعل لم يتصل به ضمير التثنية وجعل ﴿كِلَاهُمَا﴾ فاعلاً له، فإنه سالم عما سمعت في غيره"⁽²⁾. والله تعالى أعلم.

المبحث الرابع

قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [سورة مريم: 87].

قوله تعالى ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ، هذه الجملة فيها وجهان:

الوجه الأول: أنها مستأنفة سيقت للإخبار بذلك.

الوجه الثاني: أنها في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ، ويكون عائداً على المجرمين، والمعنى: غير مالكين أن يشفع لهم، ويكون على هذا □ استثناء منقطعاً. وكذلك الواو في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ فيها قولان:

القول الأول: أنها علامة للجمع، ليست ضميراً البتة، وإنما هي علامة، كما هي في لغة "أكلوني البراغيث"، والفاعل "من اتخذ" لأنه في معنى الجمع، ومحل "من اتخذ" رفع

(¹) انظر: البحر المحيط (32/6).

(²) انظر: روح المعاني (72/15).

على البدل، أو على الفاعلية، ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف، أي إن شفاعته من اتخذ، والمراد: إن يملكون أن يشفع لهم، وقد جوّز هذا الوجه الزمخشري⁽¹⁾. وقد ضعّف هذا الوجه كلٌّ من ابن عصفور النحوي وأبي حيان وابن عادل الحنبلي.

قال ابن عصفور: "وبعض العرب يلحق الفعل علامة تدل على تثنية الفاعل وجمعه، وهي لغة ضعيفة"⁽²⁾.

وقال أبو حيان: "وإن ينبغي حمل القرآن على هذه اللغة القليلة مع وضوح جعل الواو ضميراً.... وأيضاً قالوا: والألف والنون التي تكون علامات ضمائر يحفظ ما يجيء بعدها فاعلاً إن بصريح الجمع وصريح التثنية، أو العطف، أما أن تأتي بلفظ مفرد يطلق على جمع أو على مثنى فيحتاج في إثبات ذلك إلى نقل، وأما عود الضمائر مثناة ومجموعة على مفرد في اللفظ يراد به المثنى والمجموع فمسموع معروف في لسان العرب على أنه يمكن قياس هذه العلامات على تلك الضمائر، ولكن الأحفظ أن يقال ذلك إن بسماع"⁽³⁾.

إن ابن هشام لم يرق له ما قاله أبو حيان، فقال معقّباً على هذا: "وأقول إذا كان سبب دخولها بيان أن الفاعل الآتي جمع كان لحاقها هنا أولى؛ لأن الجمعية خفية"⁽⁴⁾.

وقال ابن عادل الحنبلي متابعاً لما قاله أبو حيان في تعقبه على الزمخشري: "وفيه بعد، وكأنه قيل: إن يملكون الشفاعه إن المتخذون عهداً"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ انظر: الكشاف (45/3).

⁽²⁾ انظر: شرح جمل الزجاجي (167/1)، البحر المحيط (269/6).

⁽³⁾ انظر: البحر المحيط (269/6).

⁽⁴⁾ انظر: مغني اللبيب (376/2).

⁽⁵⁾ انظر: اللباب (146/13).

القول الثاني: أن الواو ضمير، وفيما تعود عليه حينئذ أربعة أوجه.
الوجه الأول: أنها تعود على الخلق جميعهم، لدلالة ذكر الفريقين - المتقين والمجرمين - عليهم؛ إذ هما قسماه، ويكون الاستثناء على هذا متصلاً.
الوجه الثاني: أنه يعود على المتقين والمجرمين والاستثناء هنا متصل، إذ أن هذا الوجه يظهر مخالفته للوجه الأول أصلاً لأن هذين القسمين هما الخلق كله.
الوجه الثالث: أنه يعود إما على المتقين فقط، أو على المجرمين فقط، فإن كان يعود على المتقين فقط فهو استثناء متصل، وإن كان يعود على المجرمين فهو استثناء منقطع.

إذ ابن عطية جعل الاستثناء هنا أيضاً متصلاً، فقال: "ويجتمل أن يكون المجرمون يُعْمُ الكفرة والعصاة ثم أخبر أنهم يملكون الشفاعة إياهم العصاة من المؤمنين فإنه يشفع فيهم فيكون الاستثناء متصلاً"⁽¹⁾.
قال أبو حيان: "وحمل المجرمين على الكفار والعصاة بعيد"⁽²⁾.
و بعد فيه، وكما استبعد إطلاق المجرمين على العصاة، كذلك يستبعد غيره إطلاق المتقين على العصاة، بل إطلاق المجرم على العاصي أشهر من إطلاق المتقي عليه⁽³⁾.

(1) انظر: المحرر الوجيز (537/9).

(2) انظر: البحر المحيط (268/6).

(3) انظر: الدر المصون (645/7).

وقد رد هذا الوجه من عود الضمير ابن عادل الحنبلي، وقال: "وهو تحكم" (1)(2).

الترجيح:

الراجح - والله تعالى أعلم - أن يقال: إن هذه الآية الكريمة □ تصلح دليلاً على لغة: "أكلوني البراغيث"، والوجه الذي جوزه الزمخشري فيه تعسف ومبالغة؛ لأنه إذا جعله علامة ثم أعاد على لفظها الأفراد بضمير "اتخذ" كان إجمالاً بعد إيضاح، وهو عكس طريق البلاغة التي هي: الإيضاح بعد الإجمال، فالواو على إعرابه وإن لم تكن عائدة على "من" □ أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له (3).

المبحث الخامس

قال تعالى: ﴿لَا هَيْبَةَ قُلُوبِهِمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ

مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 3].

قوله سبحانه: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ، لم يقل سبحانه: وأسّر النجوى، مع العلم أن الفعل متقدم؛ لأن القاعدة تقول: أن الفعل إذا تقدم الأسماء وحده، وإذا تأخر ثني وجمع للضمير الذي فيه، والسؤال هنا: كيف جاء هذا متقدماً مجموعاً؟ لأنه كان من الواجب أن يقول: أسّر □ أسروا؟.

قال العلماء في جوابهم على هذا السؤال ما يلي: يجوز في محل ﴿الَّذِينَ﴾ ثلاثة

أوجه:

الرفع، والنصب، والجر؛ فالرفع من ستة أوجه:

(1) انظر: اللباب (146/13).

(2) انظر المسألة في: البحر المحیط (268/6)، المحرر الوجيز (537/9)، اللباب في علوم الكتاب (146/13).

(3) انظر: فتوح الغيب، للطبي (107/10).

الأول: أن يكون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في موضع رفع بدل من الواو، من "أسروا"، ومبيناً عن معنى الواو تنبيهاً على اتصافهم بالظلم، والضمير يعود على الناس المتقدم ذكرهم. والمعنى: إستمعوه وهم يلعبون، وأسروا النجوى، ثم بين من هم هؤلاء فكان بدل من الواو.

قال سيبويه: "وأما قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ فإنما يجيء على البدل"⁽¹⁾.

وقال المبرد: "وهو كقولك: إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، "فبنو" بدل من الواو في انطلقوا"⁽²⁾.

وقال الزجاج: "في "أسروا" قولان أجودهما أن يكون "الذين ظلموا" في موضع رفع بدل"⁽³⁾.

الثاني: أنه فاعل، والواو علامة جمع دلت على جمع الفاعل، كما تدل التاء على تأنيته، وكذلك يفعلون في التثنية، فيقولون: قاما أخواك، وهو على لغة "أكلوني البراغيث"، ومن عادة بعض العرب أن يقول: ضربوني قومك، وضرباني أخواك، فشبهوا هذه بالتاء التي يظهرونها في قالت فلانة، وكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث وهي قليلة. وأنشدوا:

(¹) انظر: الكتاب (241/2).

(²) نسبه له الواحدي في البسيط (12/15)، وأبو حيان في البحر المحيط (364/6).

(³) انظر: معاني القرآن وإعرابه (311/3).

يَلُومُونِي فِي اشْتِرَاءِ النَّخِيلِ أَهْلِي فَكُلُّهُمْ يَعْزِلُ⁽¹⁾

وإلى هذا ذهب الأخفش وأبو عبيدة وحسنه القرطبي.

قال الأخفش: "قال: "وأسروا النجوى" كأنه قال: "وأسروا" ثم فسره بعد فقال: "هم الذين ظلموا"، أو جاء هذا على لغة الذين يقولون: ضربوني قومك"⁽²⁾.

وقال أبو عبيدة: "بل قد تفعل العرب هذا، فيظهرون عدد القوم في فعلهم إذا بدأوا بالفعل، قال أبو عمرو الهذلي: "أكلوني البراغيث"، بلفظ الجمع في الفعل، وقد أظهر الفاعلين بعد الفعل ومجازه مجاز ما يُبدأ بالمفعول قبل الفاعل؛ لأن النجوى المفعولة جاءت قبل الذين أسروها، والعرب قد تفعل ذلك"⁽³⁾.

قال القرطبي - بعد أن ذكر قول الأخفش -: "وهو حسن"⁽⁴⁾.

وقد استبعد المبرد هذا القول أن يكون مراداً في القرآن الكريم، وقال: "الذي قالوا يجوز، ولكنه بعيد □ يختار في القرآن"⁽⁵⁾.

الثالث: أن يكون "الذين" مرفوعاً بفعل مقدر تقديره: يقول الذين ظلموا، وحذف القول، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾^(٢٣) سَلَّمَ عَلَيْكُمْ ﴿الرعد: ٢٣ - ٢٤﴾، وقيل التقدير: أسرها الذين ظلموا.

وقد اختار هذا القول النحاس.

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت، انظر: ديوانه (ص554).

(٢) انظر: معاني القرآن (ص536).

(٣) انظر: مجاز القرآن (34/2).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (174/14).

(٥) انظر: البسيط للواحد (14/15).

قال النحاس: "والجواب السادس أحسنها، وهو أن يكون التقدير: يقول الذين ظلموا، وحذف القول مثل ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) سَلَّمَ عَلَيْكُمْ ﴿[الرعد: ٢٣ - ٢٤]، فالدليل على صحة هذا الجواب أن بعده: "هل هذا إِبْ بشر مثلكم"، فهذا الذي قالوه، والمعنى: هل هذا إِبْ بشر مثلكم" (1).

الرابع: أن يكون الكلام فيه تقديم وتأخير، معناه: والذين ظلموا أسروا النجوى. فيكون "الذين" مبتدأ، و"أسروا" جملة خبرية قدمت على المبتدأ. وقال بهذا القول الكسائي (2).

الخامس: أن يكون على إضمار مبتدأ، و"الذين" خبر، تقديره: هم الذين ظلموا. السادس: أنه مبتدأ وخبره الجملة من قوله: "هل هذا إِبْ بشر"، و إِبْ بد من إضمار القول على هذا القول تقديره: الذين ظلموا يقولون: هل هذا إِبْ بشر. قال ابن الأنباري في كتاب "البيان في إعراب غريب القرآن" بعد أن ذكر هذا القول: "وهو كثير في كلامهم" (3).

وأما النصب، فمن وجهين:

الأول: أن يكون في موضع نصب على الذم، والمعنى: أذم الذين ظلموا. الثاني: أن يكون في موضع نصب بإضمار "أعني"، والمعنى: أعني الذين ظلموا. وأما الجر فمن وجهين أيضاً:

الأول: أن يكون نعتاً للناس السابقة في قوله عز وجل: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ الآية [الأنبياء: 1]، والتقدير: اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم وهم في غفلة معرضون.

(1) انظر: إعراب القرآن (ص 551).

(2) نسبه له البغوي في معالم التنزيل (310/5)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (175/14).

(3) انظر: (ص 130).

الثاني: في موضع خفض بدل من "الناس".

قال الفراء مستجيزاً هذا الوجه: "والذين" تابعة للناس مخفوضة، كأنك قلت: اقترب للناس الذين هذه حالهم"⁽¹⁾.

إِ أن أبا حيان تعقب هذا القول، وقال: "وهو أبعد الأقوال"⁽²⁾. ولعل السبب في ذلك كونه يفهم من تقدير الكلام أن الحساب اقترب للذين هذه حالهم وهم الظالمون، كما ذكر ذلك الفراء، مع أن الحساب واقترابه □ يقتصر على الظالمين فقط، بل على الناس جميعاً.

والراجح، والله تعالى أعلم أن يكون محل ﴿الَّذِينَ﴾ الرفع، فهو أقوى الوجوه. قال ابن عطية بعد أن ذكر الوجوه الأخرى النصب والجر: "وهذه أقوال ضعيفة"⁽³⁾⁽⁴⁾.

وقال الشنقيطي: وفي قوله: ﴿الَّذِينَ ظَمُّوا﴾ أوجه كثيرة من الإعراب معروفة، وأظهرها عندي أنها بدل من الواو في قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾ بدل بعض من كل، وقد تقرر في الأصول: أن بدل البعض من الكل من المخصصات المتصلة، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [سورة آل عمران: 97]، قوله: "من" بدل من "الناس" بدل بعض من الكل، وهي مخصصة لوجوب الحج بأنه □ يجب إ□ على من استطاع إليه سبيلاً"⁽⁵⁾.

(1) انظر: معاني القرآن (524/1).

(2) انظر: البحر المحيط (365/6).

(3) انظر: المحرر الوجيز (124/10).

(4) انظر المسألة في: معاني القرآن للفراء (524/2)، والأخفش (ص536)، ومجاز القرآن لأبي عبيدة (35/2)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (311/3)، وإعراب القرآن للنحاس (ص551)، والمحرر الوجيز □ بن عطية (124/10)، والبحر المحيط لأبي حيان (365/6).

(5) انظر: أضواء البيان (555/4).

كما أن القول الذي يقول: إنه فاعل، والواو علامة جمع دلت على جمع الفاعل ... وهي على لغة "أكلوني البراغيث" فهو قول [يمكن تجاهله، وقال به جمع من العلماء، فقد أجازته الزجاج، وقال به الأخفش وأبو عبيدة، وحسنه القرطبي.

المبحث السادس

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: 1]

في الكلام على الآية الكريمة مسألتان:

المسألة الأولى: القراءات الواردة في هذه الآية.

القراءة الأولى: قرأ طلحة بن مصرف وعمرو بن عبيد وعاصم الجحدري وعكرمة وأبي ابن كعب "أفْلَحَ" بضم الهمز وسكون الفاء وكسر اللام مبنياً للمفعول، وهو منقول من فَلَاح الرجل بغير ألف، وهي لغة في أفْلَح، ومعناه: أدخلوا في الفلاح. قال ابن خالويه: "وقال أبو بكر بن عياش قراءة طلحة بن مصرف "قد أفْلَحَ" بضم الألف وكسر اللام على ما لم يسم فاعله"⁽¹⁾.

القراءة الثانية: قرأ طلحة "أفْلَحُ" بفتح الهمزة وسكون الفاء، وفتح اللام وضم الحاء، قيل: اجتزأ بالضممة عن الواو⁽²⁾.

القراءة الثالثة: روى ابن مجاهد عن طلحة أنه قرأ "قد أفْلِحُوا المؤمنون" بواو، والهمزة في أوله مضمومة على البناء للمفعول.

القراءة الرابعة: وهي قراءة الجمهور ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾⁽³⁾.

المسألة الثانية: الوقوف على القراءات السابقة، وسيكون الحديث من محاور.

(1) انظر: القراءات الشاذة (ص148).

(2) انظر: القراءات الشاذة [ابن خالويه (ص148)، إعراب القراءات الشواذ للعكبري (153/2).

(3) انظر: مشكل إعراب القرآن (51/2)، الدر المصون (313/8)، البدور الزاهرة (5/3)، معجم القراءات القرآنية للخطيب (151/6).

المحور الأول:

قرأ الجمهور: ﴿أَفْلَحَ﴾ مفتوح الهمزة والحاء فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل، وورش على قاعدته من نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وحذفها، وعن حمزة في الوقف خلاف، فروي عنه كورش والجماعة.

قال مكّي معلقاً على هذا: "قرأ ورش بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذف الهمزة، وإنما حذفت الهمزة لأنها لما ألقيت حركتها على ما قبلها بقيت ساكنة، وقبلها الدال ساكنة لأن الحركة عليها عارضة واجتمع ما يشبه الساكنين فحذفت الهمزة لالتقاء الساكنين، وكانت أولى بالحذف لأنها اختلت بزوال حركتها، ولأن بها وقع استتقال، ولأنها هي الساكنة في اللفظ"⁽¹⁾.

وكذا العكبري قال: "من ألقى حركة الهمزة على الدال وحذفها، فعلمته أن الهمزة بعد حذف حركتها صيرت ألفاً ثم حذفت لسكونها وسكون الدال قبلها في الأصل، و﴿يعتد بحركة الدال لأنها عارضة﴾"⁽²⁾.

بيد أن هذا الكلام فيه نظر من وجهين:

الوجه الأول: أن اللغة الفصيحة في النقل حذف الهمزة من الأصل، فيقولون: المَرّة، والكمّة في المرأة والكمّاة، واللغة الضعيفة فيه إبقاؤها وتديريها بحركة ما قبلها، فيقولون: المَرّاة، والكمّاة، بمد بدل الهمزة، ك(راس، وفاس)، فيمن خففها، فقوله: صُيرت ألفاً ارتكاب لأضعف اللغتين.

قال سيبويه: "واعلم أن كل همزة متحركة كان قبلها حرف ساكن فأردت أن تخفف حذفها وألقت حركتها على الساكن الذي قبلها، وذلك قولك: من بوك، ومن مك، وكم بلك، إذا أردت أن تخفف الهمزة في الأب والأم والإبل، ومثل ذلك

(1) انظر: مشكل إعراب القرآن (51/2).

(2) انظر: التبيان في إعراب القرآن (ص 597).

قولك: الحمر إذا أردت أن تخفف ألف الأحمر، ومثله قولك في المرأة: المرة، والكمة: الكمة، وقد قالوا: الكمة المرأة ومثله قليل⁽¹⁾.

الوجه الثاني: أنه وإن سُلم أنها صُيِّرَت ألفاً فلا نسلم أن حذفها لسكونها وسكون الدال في الأصل، بعد حذفها الساكن محقق في اللفظ، وهو الفاء من "أفْلَح"، ومتى وجد سبب ظاهر أحيل الحكم عليه دون السبب المقدر⁽²⁾.

المحور الثاني:

قرأ طلحة بن مُصَرِّف وعمرو بن عبيد "أفْلَح" مبنياً للمفعول، والمعنى: أي أدخلوا في الفلاح، فاحتمل أن يكون من فَلَح [زماً، أو يكون أفْلَح يأتي متعدياً، يقال: أفْلَحه، أي أصاره إلى الفلاح، فيكون أفْلَح مستعملاً [زماً ومتعدياً]⁽³⁾.

المحور الثالث:

قرأ طلحة أيضاً "أفْلَحُ" بفتح الهمزة واللام وضم الحاء، وتخریجها على أن الأصل "أفْلَحُوا الْمُؤْمِنُونَ" بإلحاق علامة جمع قبل الفاعل كلغة "أكلوني البراغيث"، فيجاء فيها ما تقدم - من الآيات السابقة - قوله: ﴿عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، و﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣].

قال عيسى بن عمر: سمعت طلحة يقرأها، فقلت له: أتلحن؟ قال: نعم، كما لحن أصحابي.

بمعنى أنني اتبعتهم فيما قرأت به، فإن لحنوا على سبيل فرض الحال، فأنا [لحن تبعاً لهم، وهذا يدل على شدة اعتناء القدماء بالنقل وضبطه خلافاً لمن يُعَلِّط الرواة.

(1) انظر: الكتاب (545/3).

(2) انظر: اللباب في علوم الكتاب (164/14)، الدر المصون (313/8).

(3) انظر: البحر المحيط (479/6)، اللباب في علوم الكتاب (164/14).

قال أبو حيان: "إن مرجوعه في القراءة إلى ما روي وليس بلحن؛ لأنه على لغة "أكلوني البراغيث" (1).

وقال الزمخشري: "وعنه: "أفلحوا" على أكلوني البراغيث، أو على الإبهام والتفسير" (2).

وقال ابن عطية بعد أن ذكر القراءة: "وهي قراءة مردودة" (3).

قال السمين الحلبي متعباً كلام ابن عطية: "قلت: و[] أدري كيف يردونها مع ثبوت مثلها في القرآن بإجماع" (4).

المحور الرابع:

روي عن طلحة أيضاً أنه قرأ "أفلح" بضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقول القائل:

فلو أن الأطباء كانوا حُولي وكان مع الأطباء الأساة (5)

قال أبو حيان: "وليس بجيد لأن الواو في "أفلح" حذفت [] لتقاء الساكنين، وهنا حذفت للضرورة فليست مثله" (6).

وكذا فعل ابن عادل الحنبلي، فقال: "وفيه نظر من حيث إن الواو [] تثبت في مثل هذا درجاً لثلاً يلتقي ساكنان، فالحذف هنا [] بد منه، فكيف يقول اجتزأ بها

(1) انظر: البحر المحيط (479/6).

(2) انظر: الكشاف (177/3).

(3) انظر: المحرر الوجيز (330/10).

(4) انظر: الدر المصون (314/8).

(5) البيت لم أفد على قائله، وهو في الكشاف (177/3)، البحر المحيط (480/6).

(6) انظر: البحر المحيط (480/6).

عنها، وأما تنظيره بالبيت فليس بمطابق؛ لأن حذفها من الآية ضروري ومن البيت ضرورة، وهذه الواو □ يظهر لفظها في الدرج بل يظهر في الوقف وفي الخط⁽¹⁾.

ثم أيضاً قد اختلف النقلة لقراءة طلحة، هل يثبت للواو صورة؟ ففي كتاب ابن خالويه⁽²⁾: مكتوب بعد الحاء، وفي كتاب أبي الفضل الرازي اللوامح⁽³⁾: حذف الواو بعد الحاء □ لتقائهما في الدرج، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل، نحو: ﴿وَبِمَحُّ اللَّهِ الْبَطَلِ﴾ [الشورى: ٢٤]، ومنه ﴿سَدَّعُ الزَّبَانَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦]⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

الترجيح:

القراءة المتواترة هي قراءة الجمهور ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ، وما عداها من القراءات فهي قراءة شاذة، وعليه فمن قرأ بغير هذه القراءة ووجهها على لغة "أكلوني البراغيث" فمردود قوله لأنه يجب حمل كتاب الله عز وجل على الأوجه الإعرابية القوية والمشهورة دون الضعيفة والشاذة والغريبة، إضافة إلى أن دلالة القراءة المتواترة مقدّمة على دلالة القراءة الشاذة⁽⁶⁾.

فيحمل كتاب الله عز وجل على أصح وجوه الإعراب وأشهرها وأفصحها.

⁽¹⁾ انظر: اللباب في علوم الكتاب (166/14).

⁽²⁾ انظر: مختصر الشواذ (ص 181).

⁽³⁾ بواسطة كتاب اللباب في علوم الكتاب (166/14).

⁽⁴⁾ انظر: اللباب في علوم الكتاب (166/14)، الدر المصون (314/8).

⁽⁵⁾ انظر المسألة في: المحرر الوجيز (330/1)، البحر المحيط (479/6)، اللباب في علوم الكتاب (166/14)،

الدر المصون (314/8).

⁽⁶⁾ انظر: دراسات في قواعد الترجيح المتعلقة بالنص القرآني، لعبدالله الرومي (570/2).

المبحث السابع

قال تعالى: ﴿ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ [سورة

القمر: 7].

في قوله تعالى: ﴿ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ ﴾ الآية، وفيها ثلاث مسائل، وهي كالتالي:

المسألة الأولى: القراءات الواردة في قوله: ﴿ خُشَعًا ﴾.

القراءة الأولى: قرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف "خَشَعًا"، بفتح الخاء، وألف بعدها، وكسر الشين مخففة، بالإفراد، وهي على تقدير: تخشع أبصارهم، وحجة من قرأ بالتوحيد على "فاعل": أنه لما رأى اسم الفاعل متقدماً قد رفع فاعلاً بعده، وهو "خاشعة أبصارهم" أجراه مجرى الفعل المتقدم على فاعله، فوحده كما يُوحَد الفعل، ولم تلحقه علامة تأنيث الجمع؛ لأن التأنيث فيه ليس بحقيقي⁽¹⁾.

قال أبو علي: "وجه من قال: "خاشعاً" أنه فعل متقدم، فكما لم يلحق علامة التأنيث لم يجمع، وحسن أ[] يؤنث، لأن التأنيث ليس بحقيقي"⁽²⁾.

القراءة الثانية: قرأ قتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج وابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر والحسن وابن محيصن "خُشَعًا" جمع تكسير، بضم الخاء، وفتح الشين مشددة. وحجة من قرأ بالجمع أنه فرق بين أ[] اسم الرفع لما بعده، وبين الفعل، فجمع مع أ[] سم، ووحد مع الفعل للفرق، وحسن فيه الجمع؛ لأن الجمع يدل على التأنيث، فصار في د[] لته على التأنيث بمنزلة قولك "أبصارهم"⁽³⁾.

⁽¹⁾ انظر: السبعة [] بن مجاهد (ص617)، الحجة في علل القراءات السبع (4/395)، التذكرة في القراءات الثمان، [] بن غلبون (2/575)، البدور الزاهرة (4/83).

⁽²⁾ انظر: الحجة في علل القراءات السبع (4/395).

⁽³⁾ انظر: السبعة [] بن مجاهد (617)، التذكرة في القراءات الثمان (2/575)، النشر في القراءات العشر [] بن

قال أبو علي: "ومن قال: ﴿خُشَعًا﴾ فقد أثبت ما يدل على الجمع، وهو على لفظ الأفراد، ودل لفظ الجمع على ما يدل عليه التأنيث الذي ثبت في نحو قوله في الأخرى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ [الفلم: ٤٣]، ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]، فلذلك يُرَجَّحُ: مررت برجل حَسَانٍ قَوْمُهُ، على قولهم: مررت برجل حسن قومه؛ لأن "حساناً" قد حصل فيه ما يدل على الجمع، والجمع كالتأنيث في باب أنه يدل عليه"⁽¹⁾.

قال أبو شامة: "﴿خُشَعًا﴾ [الحشر: ٢١] فهو مثل سكارى معاً سكرى: أي قوله تبارك وتعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ يقرأه شفا حميداً⁽²⁾ وهما لغتان في اسم الفاعل إذا رفع فاعلاً مجموعاً هل يفرد في نفسه أو يجمع جمع تكسير، تقول: مررت بزید قاعداً غلمانه، وقعوداً غلمانه سواء في ذلك الحال والصفة، نحو: مررت برجل قاعدٍ غلمانه وقعودٍ غلمانه"⁽³⁾.

القراءة الثالثة: قرأ أبي وابن مسعود "خاشعةً" بالهاء على تأنيث الأبصار، وهو على تقدير: "تحشع".

القراءة الرابعة: قرئ "خُشَعٌ أَبْصَرُهُمْ" بالرفع "خشع" خبر مقدم، وأبصارهم مبتدأ مؤخر، ومحل الجملة نصب على الحال⁽⁴⁾.

الجزري (284/2)، البدور الزاهرة (83/4).

⁽¹⁾ انظر: الحجة في علل القراءات السبع (395/4).

⁽²⁾ أي قرأ المرموز له بالشين من "شفا" وهما حمزة والكسائي، والمرموز له بالحاء "حميداً" وهو أبو عمرو، قرأوا: ح ك ج على وزن فاعلاً. انظر: الوافي في شرح الشاطبية (ص364).

⁽³⁾ انظر: إبراز المعاني من حرز الأمان (ص742).

⁽⁴⁾ انظر: القراءات الشاذة لابن خالويه (ص217)، إعراب القراءات الشواذ (527/2).

والقراءة الأولى والثانية كلاهما قراءتان ثابتتان، أما الثالثة والرابعة فهما قراءتان شاذتان.

المسألة الثانية: الإشكال ووجهه.

القراءة الأولى "خاشعاً" على الأفراد □ إشكال فيها □ لبس، وهي جارية على القواعد المقررة في النحو من حيث أن الفعل وما جرى مجراه - كاسم الفاعل هنا - إذا قدم على الفاعل وُحِدَ، تقول: تخشع أبصارهم، □ تقول: يَخْشَعْنَ أبصارهم، قال ابن مالك:

وجرد الفعل إذا ما أسندا □ ثنين أو جمع كفاز الشهدا⁽¹⁾

وقال الحريري في ملحة الإعراب: "ووحده الفعل مع الجماعة ..."⁽²⁾.

أما قراءة "خشعاً" بالجمع فإنَّ فيها إشكالاً إعرابياً سببه مجيء هذا اللفظ جمعاً أسند إليه الفاعل على تلك الصورة، والقاعدة المشهورة توحيد الفعل، ونحوه مع الجمع والمثنى، وهنا يكون "خُشَعاً" بمنزلة: خشعن، أو يخشعن، قال الزمخشري: "وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث، وهم طيء"⁽³⁾.

قال أبو أسامة الدمشقي معلقاً: "وليس كذلك، فإن لغة أكلوني لغة ضعيفة"⁽⁴⁾.

فما المخرج إذاً وكيف يوجه الإشكال ويرفع؟.

⁽¹⁾ انظر: الألفية بشرح ابن عقيل (79/2).

⁽²⁾ انظر: (ص156).

⁽³⁾ انظر: الكشاف (433/4).

⁽⁴⁾ انظر: إبراز المعاني (ص742).

أما التوجيه ورفع الإشكال عما سبق فهو أن هناك فرقاً بين الأفعال المحضة، وأسماء الفاعلين في مثل هذا، فإن أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة يجوز أفرادها وتأنيتها وجمعها على حد سواء، و[] يكون حينئذ وارداً على لغة طيء؛ بل هو الفصيح عندهم وعند غيرهم، تقول: مررت بشباب حسنٍ أوجههم، وحسانٍ أوجههم، وحسنةٍ أوجههم، وأنشد في ذلك:

وشبابٍ حسنٍ أوجههم
من إباد بن نزار بن معد⁽¹⁾

وقال آخر:

تلقي الفجاج بها الركبأن معترضاً
أعناق بُزَّها مرخى لها الجُدُلُ⁽²⁾

وقيل: "و جمع التكسير في اللغة في مثل هذا أكثر من الإفراد"⁽³⁾. قال أبو حيان: "و[] يجري جمع التكسير مجرى جمع السلامة، فيكون على تلك اللغة النادرة القليلة، وقد نص سيبويه على أن جمع التكسير أكثر في كلام العرب، فكيف يكون أكثر، ويكون على تلك اللغة القليلة؟، وكذا قال الفراء حين ذكر

(¹) قائله الحرث بن روس الإيادي، ويروى: لأبي دؤاد الإيادي، وهذا البيت يظهر حقيقة وقاعدة هي: أنه إذا تقدم الفعل أو اسم الفاعل أو شبهه على الجماعة جاز تأنيته وتوحيده وجمعه، والبيت جاء على التوحيد وهو الأوضح. انظر: معاني القرآن للفراء (105/3)، الحجة [] بن خالويه (ص338)، اللباب في علوم الكتاب (238/18)، لسان العرب (77/3)، مادة "أيد".

(²) البيت في معاني القرآن للفراء (105/3)، والبحر المحيط (249/8) من غير نسبة، وكذا في اللباب في علوم الكتاب (238/11)، وقال محقق البحر المحيط د. عبدالرزاق المهدي في تعليقه على البيت: "وهو للقطامي (249/8) حاشية (5)، ولم أقف على قائله".

(³) انظر: البحر المحيط (249/8).

الإفراد مذكراً ومؤنثاً وجمع التكسير، قال: لأن الصفة متى تقدمت على الجماعة جاز فيها ذلك، والجمع موافق لفظها فكان أشبه⁽¹⁾.

وقال صاحب إتحاف فضلاء البشر: "والباقون بضم الخاء وفتح الشين، وتشديدها بلا ألف، وهو فصيح أيضاً كثير، لكونه جمع تكسير، وهو كالواحد بجمع الإعراب بالحركة فلا يخرج على لغة "أكلوني البراغيث"⁽²⁾.

وقد قوى السهيلي لغة "أكلوني البراغيث"، واحتج لها بمحدث "يتعاقبون فيكم ملائكة"⁽³⁾، وبأن هذه العلامة للفاعلين، [] للفعل، كما أن التاء نحو "ظفرت يداك، يداك، وقامت هند"، ليست للفعل؛ لأن الفعل عبارة عن الحدث، وهو اسم مذكر، [] تلحقه علامة التأنيث [] في التحديد، نحو: ضربة وجلسة⁽⁴⁾.

وهذه اللغة⁽⁵⁾ - وإن كنا [] نحمل القراءة عليها - يعضدها شواهد كثيرة، ونصوص محتملة، ومن ذلك قول الشاعر:

رأين الغواني الشيب [] ح بعارضي فأعرضن عني بالخدود النواضر⁽⁶⁾

⁽¹⁾ انظر: البحر المحيط (249/8).

⁽²⁾ انظر: (506/2).

⁽³⁾ الحديث سبق تخريجه.

⁽⁴⁾ انظر: نتائج الفكر (ص166-167).

⁽⁵⁾ القائل هو: د. عبدالعزيز علي الحربي في توجيه مشكل القراءات العشرية الفرشية (ص458).

⁽⁶⁾ شاهد ذكره ابن عقيل على ألفية ابن مالك (226/1)، ونسبه المحقق للعتبي.

وقول الآخر⁽¹⁾:

تولى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعود وهميم

ولذا يقال: إنما يخرج على تلك اللغة إذا كان الجمع جمع سلامة نحو: مررت بقوم كريمين أبأؤهم، والزحشري قاس جمع التكسير على جمع السلامة، وهو قياس فاسد يرده النقل عن العرب أن جمع التكسير أجود من الأفراد⁽²⁾.

قال سيبويه: "واعلم أن ما كان يجمع بغير الواو والنون نحو: حسن، وحسان، فإن الأجود فيه أن تقول مررت برجل حسان قومه، وما كان يجمع بالواو والنون نحو: منطلق ومنطلقين، فإن الأجود فيه أن يجعل بمنزلة الفعل المتقدم، فتقول: مررت برجل منطلق قومه"⁽³⁾.

الترجيح:

بعد عرض المسألة وما اشتملت عليه من أقوال تبين ما يلي:

أن حمل الآية على لغة "أكلوني البراغيث" وجه فيه نظر، كما سبق بيانه، ولأنه □ حاجة إلى البناء عليه لجواز "جاء رجل قعود غلمانه"⁽⁴⁾، فلا يقاس جمع التكسير على جمع السلامة؛ لأنه قياس فاسد، ووجه ضعيف، وعليه فيقال: يجب حمل كتاب الله عز وجل على الأوجه الإعرابية المشهورة والفصيحة دون الضعيفة والشاذة.

(1) وهو عبدالله بن قيس الرقيات، انظر: ديوانه (ص196).

(2) انظر: البحر المحيط (248/)، اللباب في علوم الكتاب (239/18).

(3) انظر: الكتاب (43/2).

(4) انظر: فتوح الغيب، للطبيبي (123/15).

الخاتمة

بحمد الله سبحانه تمّ هذا البحث، حيث أتى على الآيات القرآنية التي قيل إنها جاءت على لغة "أكلوني البراغيث"، ودرسها دراسة تفسيرية، فأحمده سبحانه أو¹ وأخراً وظاهراً وباطناً، ولقد ظهر لي بعض النتائج والتوصيات وهي فيما يلي:
فأما النتائج:

1 - أن ورود لغة "أكلوني البراغيث" وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية يعتبر نادراً، و² يخلو عن القيل والقال.

2 - ردّ قول من يقول: أن هذه اللغة شاذة، أو ضعيفة، لورودها في كتاب الله عز وجل، الذي نزل بلسان عربي مبين، فأعجز به فطاحلة اللغة واللسان، فكيف يحكم على مثل هذه اللغة بالشذوذ مع ورودها في أفصح كتاب، وأعلى مقام، وهو القرآن الكريم.

3 - أنّ فهم اللغة العربية، ومدلولها، وقواعدها، هو الطريق الأمثل لفهم وتفسير معاني القرآن الكريم.

4 - لعل المراد بالشاذ الذي حمل عليه كثير من أهل التفسير كسيبويه وغيره هو ما قابل اللغة الفصيحة المشهورة، وإنما يقال: الشاذ في كلام وقع من عربي مخالفاً للغة ولم يمكن تأويله، فالتأويل مقدم على التشديد⁽¹⁾.
وأما التوصيات:

1 - أوصي نفسي وإخواني من طلبة العلم الشرعي بأن يكون القرآن الكريم هو الكتاب الأول في اهتماماتهم تلاوة، وتفسيراً، واستنباطاً، واستدلالاً، وأن هذا هو المعين الحق.

(1) انظر: حاشية الأمير على شذور الذهب (ص50)، فالمراد بالشاذ هنا القلة والندرة ² الضعيف.

2 - دراسة كل لغة من لغات العرب على حدة، واستظهار ما جاء منها في القرآن الكريم، فإن هذا يفتح آفاقاً جديدة، ومعاني دقيقة في تفسير القرآن الكريم.